مِن الأَسْرَارِ الدِّلاليَّةِ لأَدَوَاتِ الغَايَةِ

د٠ هاجر محمد حسين نصرون (*)

المقدمة:

الحمدُ لله الكريمِ المنَّانِ، الرَّحيم الرَّحمَن، أنزلَ القرآنَ، خلقَ الإنسانَ، علَّمه البيان، وأشهدُ ألا إله إلا الله، وحدَه لا شريكَ له، تنزَّه عن الشَّبِيه، وجَلَّ عن التَّشبيه، تفرَّد بالإنعامِ والرِّعاية، فوَجَبَ شكرُه صريحاً لا كِناية.

وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه، أفصحُ الخلق لسانًا، وأحسنهم بيانًا، حَبَاهُ ربُّه بالمثاني، معجزة الألفاظ والمَعاني، فعليه مِن الله بديعُ صلواتِه، مطابقةً لجمال ذاته، وتكميلاً لشرف صفاتِه، أما بعد،،،

فإنَّ دراسةَ الأدواتِ النَّحويَّة – بما تحملُ من معانٍ متعددة ووظائفَ متنوِّعة وبِنية مختلفة – موضوعٌ يستحقُ البحث؛ لما لهذه الأدواتِ من أهمية كبرى في التَّراكِيب اللغويَّة؛ إذ لا تكادُ تخلو هذه التَّراكيب من مجيء هذه الأدوات في ثناياها؛ لذلك فهي تستحق أنْ تُفردَ بعلمٍ نحويٍّ وَصْفيٍّ دلاليٍّ، يُسمى (علمُ الأدوات النَّحوية)، فإذا أخذنا هذا المصطلحَ– علم الأدوات النحويَّة – بمعناه الواسع الشَّامل للاسمية والفعلية والحرفية ساغَ لنا أنْ نخصَّ هذه الأدواتِ بعلم مستقلٍّ، حيث تُضفِي على الجملة العربيَّة دلالاتٍ يحدِّدُها انتظامُها في الجملة، فضلاً عن كونها روابطَ لأجزاء الجملة.

إن الحديث عن الأدوات في التَّعبير العربيِّ " مجالٌ حيويٌّ للربط متعدد الوظائف، ووسيلة جوهرية لإنشاء الأساليب وتمييزها، ومفتاح لفهم النَّحو العربي

(*) كلية العلوم والآداب – الرس. جامعة القصيم – المملكة العربية السعودية.

برمته" (١) ومن ثَمَّ مِفتاح لفهم مقاصدِ الشَّريعة، وفهم مراد الله – إن صحَّ التعبير – من آيات القرآن الكريم.

ولهذه الأدواتِ فائدةٌ كبرى، قال المرادي: " فإنَّه لمَّا كانت مقاصِدُ كلامِ العرب على اختلاف صنوفه، مبنيًّا أكثرُها على معاني حروفه، صَرفَت الهمَمَ إلى تحصيلها، ومعرفة جملتها وتفصيلها، وهي مع قلَّتِها، وتيسر الوقوف على جملتها، قد كثر دورها، وبعد غورها، فعزَّت على الأذهان معانيها، وأبَت الإذعانَ إلا لمَن يعَانِيها"(٢).

وحسبُنا أنْ نعلم أنَّ الحرف الواحد في السِّياق يغيِّر معنى مَا تعلَّق به ويَقْلِبُ دلالَته إلى النَّقيض، فيتغيَّر الفعل أو الاسم حسب وجود هذا الحرف فالفعل (رغب) – مثلا- يتعدَّى بإلى، وفي، وعن، والباء، ومع كل حرف يتعدَّى به تظهر له دلالةٌ غير دلالته مع الحرف الآخر، إلى غير ذلك من الأفعال التي يتغير معناها حسب ما تعدَّى به من الأداة.

إنَّ أدواتِ الغاية لها أثرٌ واضحٌ في إبراز معاني القرآن الكريم، وسأعرض لجانب من جوانب هذه المعاني من خلال الاستعمال القرآني لهذه الأدوات:

النَّموذج الأوَّل:

في قوله تعالى:" قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ "(٣)، وقوله تعالى: " قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ "(٤). يرى الإسكافي أنَّ الحرف

---

(١) الأدوات النحوية في كتب التفسير: د. محمود أحمد الصغير، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٢، ص١٢.

(٢) الجنى الدَّاني في حروف المعاني: المرادي (الحسن بن القاسم)، (ت ٧٤٩هـ)، تحقيق: د. فخر الدين قباوه، د. محمد نديم فاضل، ط٢، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م، ص١٩.

(٣) سورة البقرة: من الآية ١٣٦.

(٤) سورة آل عمران: من الآية ٨٤.

(إلى) في آية البقرة يدلَّ على الانتهاء إلى الشيء من أي الجهات كان ذلك، كما بينه علماء النحو[١] والكتب السماوية منتهية إلى الأنبياء وإلى أممهم، وأول الآية خطاب للأمة وهو قوله: (قولوا)، أمَّا آية آل عمران فإنَّ (على) تختصُّ بجانب الفوق، وهذا خاص بالأنبياء، فالكتب السَّماويَّة منزلة عليهم وحدهم، ولذلك جاء الخطاب في أوَّل الآية قوله: (قل) وهو خطاب لنبينا محمد – ﷺ-. يقول في ذلك الإسكافي:"(على) موضوعة لكون الشيء فوق الشيء ومجيئه من علو فهو مختص من الجهات كلها بجهة واحدة، و(إلى) المنتهى، ويكون المنتهى من الجهات السِّت كلِّها، فإنْ توجَّه نحو الشيء شيء من عن يمينه أو عن شماله أو قدامه أو من ورائه أو من فوقه أو من تحته، فإنَّه إذا بلغه يقال فيه: انتهى إليه، فلا يخصَّص (إلى) بجهة واحدة كما يتخصَّص (على). فقوله تعالى: "قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ" اختيرت فيه (إلى)؛ لأنَّها مصدرةٌ بخطاب المسلمين، فوجب أنْ يختار له (إلى)، ثمَّ جعل ما عطف عليه على لفظه بحق الاتباع وإنْ صحَّ فيه معنى الانتهاء، فالمؤمنون لم ينزل الوحي في الحقيقة عليهم من السَّماء، وإنَّما أُنزِل على الأنبياء ثمَّ انتهي من عندهم إليهم، فلمَّا كان (قولوا) خطابًا لغير الأنبياء، وكان لأممهم كان اختيار (إلى) أولى من اختيار (على).

ولمَّا كانت في سورة آل عمران قد صدرت بما هو خطاب للنبي – صلى الله عليه وسلم-، وهو قوله: "قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا" كانت أحقَ بهذا المكان؛ لأنَّ الوحي أُنزِل عليه..."[٢]، وقد تبعه في ذلك كل من الكرماني، وابن

---

(١) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: ابن هشام (أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف الأنصاري المصري)،(ت ٧٦١هـ)، تحقيق: د. مازن المبارك، محمد علي حمد الله، راجعه: سعيد الأفغاني، ط٥، ١٩٧٩م، دار الفكر، ١/٨٨، ١٦٣.

(٢) درة التنزيل وغرة التاويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز: الإسكافي (أبو عبد الله محمد بن عبد الله)، (ت٤٢٠هـ)، برواية ابن أبي الفرج الأردستاني، ط٤، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ص ١٩.

الزبير، وابن جماعة، والأنصاري(١). لكن ما قاله الإسكافي لم يخلُ من الاعتراض عليه، فنجد الزمخشري يعترضُ عليه فيقول: "ومَن قال إنَّما قيل: (علينا) لقوله: (قل)، و(إلينا) لقوله: (قولوا) تفرقة بين الرسول والمؤمنين؛ لأنَّ الرَّسول يأتيه الوحي على طريق الاستعلاء، ويأتيهم على وجه الانتهاء فقد تعسَّف؛ ألا ترى إلى قوله: "**بما أنزل إليك**"، و"**أنزلنا إليك الكتاب**"، وإلى قوله: "**ءامنوا بالذي أنزل على الذين ءامنوا**"(٢).

وما ذهب إليه الزَّمخشري من اعتراض أمر وجيه، ولكن يمكن الردُّ عليه بأن ما ذكره الإسكافي وابن الزبير عن الآيتين قد تخرج عن الحقيقة إلى المجاز، وهذا يفهم من كلامهما عند تخريج الآيتين، وقد نقل الرَّازي هذا الاعتراض (٣).

وقد وضَّح الزَّمخشري تخريجَه بقوله:" فإنْ قلت: لم عُدِّى (أنزل) في هذه الآية – آل عمران- بحرف الاستعلاء، وفيما تقدم من مثلها- البقرة- بحرف الانتهاء؛ قلت: لوجود المعنيين جميعًا؛ لأنَّ الوحي ينزل من فوق وينتهي إلى الرُّسل، فجاء تارةً بأحد المعنيين وأخرى بالأخرى"(٤).

أمَّا أبو حيَّان فقد جمع تخريجات المفسِّرين دونَ أنْ يرجِّحَ بينها(٥)، أمَّا ابن عاشور فقد أجملَ القولَ في آية سورة البقرة، بقوله: " والمراد بما أنزل إلينا القرآن،

(١) ينظر: البرهان: ص ١٣١، ملاك التأويل: ١/٢٣٩، كشف المعاني: ص ١٠٧، ١٠٨، فتح الرحمن: ص ٣١.

(٢) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: الزمخشري(أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشريّ الخوارزميّ)،(ت: ٥٣٨هـ)، ط١، ١٣٩٧هـ. ١٩٧٧م، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع: ١/٤٤٢.

(٣) التفسير الكبير: ٨/١٠٨.

(٤) الكشاف: ١/٤٤٢.

(٥) البحر المحيط: ٢/٥١٦، ٥١٧.

وبما عطف عليه ما أنزل على الأنبياء والرسل من وحي، وما أوتوه من الكتب، والمعنى: أنا آمنا بأن الله أنزل تلك الشرائع، وهذا لا ينافي أن بعضها نسخ بعضًا، وأنَّ ما أنزل إلينا نسخ جميعها فيما خالفها فيه، ولذلك قدم "وما أنزل إلينا" للاهتمام به، والتَّعبير في جانب بعض هذه الشرائع بلفظ أنزل ،وفي بعضها بلفظ أوتي تفنن لتجنب إعادة اللفظ الواحد مرارًا، وإنَّما لم يفرد أحد الفعلين، ولم تعطف متعلقاته بدون إعادة الأفعال تجنبًا لتتابع المتعلقات فإنَّه كتتابع الإضافات في ما نرى"(١).

وقال ابن عاشور موضِّحًا التعبير بـ (إلى) و(على) في الآيتين وذلك عند تخريجه لآية سورة آل عمران؛ حيث قال: "المخاطب بالفعل (قل) هو النبي –صلى الله عليه وسلم–، ليقول ذلك بمسمع من الناس: مسلمهم، وكافرهم، ولذلك جاء في هذه الآية قوله: "وما أنزل علينا"، أي: أنزل عليّ لتبليغكم فجعل إنزالَه على الرسول والأمة لاشتراكهم في وجوب العمل بما أنزل، وعدّي فعل (أنزل) هنا بحرف (على) باعتبار أن الإنزال يقتضي علوًّا، فوصول الشيء المنزل وصول استعلاء، وعدّي في آية سورة البقرة بحرف (إلى) باعتبار أنَّ الإنزال يتضمَّن الوصول وهو يتعدَّى بحرف (إلى)..."(٢).

والإسكافي يضع توجيهًا للفرق بين (إلى) و(على) – وإنْ كان كلامه هذا في سورة الزمر وهي ليست من السبع الطوال– يمكن عدُّه أصلا يطبق على مثله في آيات الكتاب العزيز، فعند حديثه عن قوله تعالى: " إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ "(٣)، وقوله: "إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ "(٤)، يقول:"

(١) التحرير والتنوير: ٧٣٩/٢.

(٢) السابق: ٣٠٢/٣.

(٣) سورة الزمر: الآية ٢.

(٤) سورة الزمر: من الآية ٤١.

أكثر المواضع التي ذكر فيها إنزال القرآن على النَّبي – ﷺ- عدي ب(على)، كقوله: "ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ "[١]، وكقوله: "وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ "[٢] وأكثر ما جاء إنزاله على الناس جاء معدَّى بـ (إلى)، كقوله: "وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا "[٣]، ثم كل موضع قبل فيه: (أنزلنا إليك) فقد شدَّد فيه التكليف عليه ونزل منزلة أمته فيما يجب على عالمهم تبيينه لمتعلمهم، كقوله في أوَّل هذه السورة: " إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ"، فقد أمر بإخلاص العبادة، والمراد هو وأمته، وكقوله: "وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ "[٤]، فكان المراد في المواضع التي استعملت في (إلى) أنَّه تناهى إلى حيث لا متعدى وراءه من علم سنة مقصورة عليه، فكل موضع عدي فيه بـ (على) فإنَّ المراد به أنَّه شرَّفَك، وأَعْلَى بذلك ذكرَك لتؤدي ما عليك فتنذر وتبشِّر"[٥].

فالإسكافي لاحظ أنَّ أكثر المواضع التي جاء فيها إنزال القرآن على النبي – عليه السلام– قد عُدِّي بالحرف (على)، أمَّا إنزاله على الناس فعُدِّي بالحرف (إلى)، وهذا ملحظ لفظي، أمَّا الملحظ المعنويّ، فيرى أنَّ كل موضع بالحرف (إلى) فإنَّه يفيد تشديد التكليف عليه صلى الله عليه وسلم. أمَّا التعدية بالحرف (على) فيفيد التشريف له والتخفيف عنه، وقد وافقه على ذلك جَمْعٌ من علماء التفسير.

(١) سورة الكهف: من الآية ١.

(٢) سورة النحل: من الآية ٨٩.

(٣) سورة النساء: من الآية ١٧٤.

(٤) سورة النحل: من الآية ص ٤٤.

(٥) درة التنزيل: ص ٢٢٥.

وقد عُدي الإنزال بـ (إلى) والخطاب للنبي -عليه السلام- في تسعة عشر موضعًا من كتاب الله، كما عُدي بـ (على) في ثمانية عشر موضعًا والخطاب فيها للنبي(١)، وذهب الكرماني مذهب الإسكافي فقال: "كل موضع خاطب الله -تعالى- فيه النبي -ﷺ- بقوله: "**إنا أنزلنا إليك**" ففيه تكليف، وإذا خاطبه بقوله: "إنا أنزلنا عليك" ففيه تخفيف، اعتبر بما في هذه السورة - الزمر- فالذي في أوَّل السورة (إليك)، فكلَّفه الإخلاصَ في العبادة، والذي في آخرها (عليك) فختم الآية بقوله: "**وما أنت عليهم بوكيل**"، أي: لست مسؤولا عنهم مخفِّفًا عنه ذلك"(٢)، وتابعه عدد من العلماء (٣).

أمَّا ابن الزبير الغرناطي فيذهب مذهبًا قريبًا من سابقيه، فيرى: "أنَّ (إليك) و(عليك) هنا مترادفان على معنى واحدٍ من معنى الخطاب، فتارة يراعى وصول المنزل بواسطة الملك، وتارة يراعى وصوله من عند الله سبحانه من غير واسطة، فإذا رُوعِي هذا قيل: (عليك)، وإذا رُوعِي الأوَّل قيل: (إليك)"(٤)، وهو توجيه يختلف عن توجيه الإسكافي ومن وافقه؛ لأنَّه لم يلاحظ ما لاحظه الإسكافي، وإنَّما لاحظ أنَّه ينزل عليه بلا واسطة وينزل إليه بواسطة. كما أوضح ابن الزبير أنَّ الآية الثانية جاء فيها قوله: (للناس) واللام الجارة تفيد الاختصاص، وترادف كثيرًا، لفظة (إلى) ولهذا جاءت مع (على)، ولو وردت مع (إلى) لكان ذلك كالمرادف(٥).

(١) هذا الإحصاء اعتمدت فيه على ما جاء في المعجم المفهرس: لمحمد عبد الباقي: ص٨٦٦- ٨٩٦..

(٢) البرهان: ص٣٢١.

(٣) كشف المعاني: ص٣١٢، ٣١٣، فتح الرحمن: ص ٣٦٤.

(٤) ملاك التأويل: ٢/٩٨٣.

(٥) المصدر السابق نفسه: ٢/٩٨٣، ٩٨٤.

النموذج الثاني:

ونطالعه في قوله تعالى في سورة المائدة: " **وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ** "(١) حيث ورد اللفظ باللام في قول: (لهم) بينما جاء في آخر آية في سورة الفتح بـ (منهم) حيث قال الله تعالى: "**وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا** "(٢).

يرى ابن الزبير أنَّ آية المائدة عامَّة، فهي في المؤمنين الصادقين دون المنافقين في أي مكان أو زمان فلم يحتج إلى تخصيصهم بما خصص به الآية الثانية، فالمعنى: من عمل بما ذكر فله مغفرة وأجر عظيم، وآية الفتح خاصة بأصحاب النبي – صلى الله عليه وسلم-، وكان من جملة من صحبه منافقون، فقال:(منهم) تمييزًا وتفصيلا ونصًا عليهم بعدما ذكر من جميل صفاتهم، يقول ابن الزبير: "آية المائدة لما تقدمها خطاب المؤمنين في قضيتين الأولى منهما: القيام للصلاة "**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ** "(٣)، والثانية قوله تعالى: " **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِ** "(٤)، ولم يقع أثناء هذه الآي إشارة إلى غيرهم، ولا انجر معهم أحد ممن سواهم، لم يحتج إلى تخصيص الخطاب الوعدي فأطلق القول ولم يقيد بأن يقال: (منهم) ولا عملت (وعد) في مفعولها الثاني... وأمَّا آية الفتح فأعقب بها التمثيل الجاري في ذكر الزرع... إلى ما وصفوا به وعرف أنه مثلهم في التوراة وأنَّ مثلهم في الإنجيل قد كان كذا، فمع ما وصفوا به

(١) سورة المائدة: الآية ٩.

(٢) سورة الفتح: من الآية ٢٩.

(٣) سورة المائدة: من الآية ٦.

(٤) سورة المائدة: من الآية ٨.

قد عاصرهم، وكان في أيامهم ومعهم من علم نفاقه... وقد شمل الكل عموم قوله: (والذين معه) بظاهر الإيمان؛ إذ كانوا يتظاهرون بما وصف به المؤمنون، فجيء هنا بالوعد محرزًا مخرجًا منه من كان يتظاهر بالإيمان، ويلزق بالمؤمنين وليس منهم ... فجيء قوله: (منهم) ليحرز هذا المعنى الجليل"(١) . وقد وافقه ابن جماعة(٢).

النموذج الثالث:

أخبرنا الله – تعالى– عن قصة موسى – عليه السَّلام– مع الطاغية (فرعون) فقال الله تعالى في سورة الأعراف: " **قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ** "(٣) بينما قال سبحانه في سورة طه والشُّعراء: "**قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ**"(٤)، حيث عبَّر سبحانه في الأعراف بقوله: (به) بحرف الجر (الباء) وفي طه والشُّعراء بحرف الجر (اللام)، ويرى الإسكافي أنَّ (**ءَامَنتُم بِهِۦ**) و(**ءَامَنتُمْ لَهُۥ**) واحد لكن الاختلاف في عود الضمير، ففي الأولى يعود لربِّ العالمين، والثانية لموسى، وتبعه كل من: الكرماني، وابن جماعة، والأنصاري، وابن عاشور (٥)، حيث قال الإسكافي:" إن الهاء في (ءَامَنتُم بِهِۦ) غير الهاء التي في (ءَامَنتُمْ لَهُۥ) وكل واحدة تعود إليه الأخرى، فالأولى (ءَامَنتُم بِهِۦ) لرب العالمين؛ لأنَّه تعالى حكى عنهم "قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ "

---

(١) ملاك التأويل: ١/٣٧٤، ٣٧٦.

(٢) كشف المعاني: ١٤٦.

(٣) سورة الأعراف: من الآية ١٢٣.

(٤) سورة طه: من الآية ٧١، وسورة الشعراء: من الآية ٤٩.

(٥) البرهان: ص ١٩٩، كشف المعاني: ص ١٨٣، فتح الرحمن: ص ١٤٨، التحرير والتنوير: ١٦/٢٦٣.

وهو الذي دعا إليه موسى – عليه السَّلام–، وأمَّا الهاء في (ءَامَنتُم بِهِۦ) فلموسى – عليه السلام–، والدَّليل على ذلك أنَّها جاءت في السورتين – طه والشعراء– وبعدها في كل واحدة منهما: "إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ" فالهاء في (إنه) هي التي في (ءَامَنتُم بِهِۦ)، والذي جاء بعد قوله: (ءَامَنتُم بِهِۦ) قوله تعالى: "إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ"، أي: إظهاركم ما أظهرتم من الإيمان برب العالمين ... ويجوز أن يكون الهاء في ضمير موسى – عليه السلام– ؛ لأنَّه يجوز أن يقال: آمن بالرسول... فاقتضى هذا الموضع الذي ذكر فيه المكر إنكار الإيمان به. فأمَّا الإيمان له في الموضعين الآخرين فاللام تفيد معنى الإيمان من أجله، ومن أجل ما أتى به من الآيات... فلذلك خصَّ باللام، والأوَّل خصَّ بالباء. وقد تدلُّ (اللام) على الاتباع فيكون المعنى: اتبعوه؛ لأنَّه كبيركم في عمل السِّحر، وقد يؤمن بالخبر من لا يعمل عليه ولا يتبع الداعي إليه"(١).

أمَّا ابن الزبير في ملاك التَّأويل فيوضِّح الأمر أكثر ويقول: "إنَّ (الباء) في قوله: (ءَامَنتُم بِهِۦ)، واللام في: (ءَامَنتُمْ لَهُۥ) محتاج إلى كل واحدة منهما من حيث إنَّ التصديق والانقياد معنيان يحتاج إليهما، و(الباء) تحرز التصديق، و(اللام) تحرز الانقياد والإذعان"(٢)، فابن الزبير يرى أنَّ الإيمان يدلُّ على التصديق والانقياد والإذعان للأمر؛ فإذا عُدِّي بالباء دلَّ على التصديق، وإذا عُدِّي باللام دلَّ على معنى الانقياد.

وعقَّب البيضاوي على ذلك قائلا: "واللام لتضمين الفعل معنى الاتباع"(٣).

(١) درة التنزيل: ص ٩٨، ٩٩.
(٢) ملاك التأويل: ٥٧٢/١.
(٣) تفسير البيضاوي: ٥٢/٢.

النَّموذجُ الرَّابع:

نجده سبحانه وتعالى يقول في سورة النساء: "**يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ**"(١)، وفي سورة المائدة يقول: "**مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ**"(٢).

حيث عبَّر الله – تعالى- بـ (عن) في المائدة وبـ (من) في النِّساء، يقول ابن جماعة: "إنَّ الأولى – المائدة- ربمَّا أريد بها التحريف الأوَّل عند نزول التَّوراة، ونحو تحريفهم في قولهم موضع (حِطة): حنطة، وشبه ذلك، فجاءت (عن) لذلك. والآية الثانية – النِّساء- تحريفهم في زمن النبي – صلى الله عليه وسلم-، وتغييرهم عن المقول لهم في التوراة بغير معناه، كأنَّه قال من بعد ما علموا به واعتقدوه وتدينوا به كآية الرَّجم ونحوها، فـ (عن) لما قرب من الأمر، و(بعد) لما بعد"(٣).

النموذج الخامس:

ومن هذه الدلالات التي تكسوها أدوات الغاية على التَّركيب فتجلو الفرق الفعل (أسلم) فهو يتعدَّى عند الزَّمخشري بـ (إلى) و(اللام) كقوله تعالى: "**وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ**"(٤) من سورة لقمان، وفي قوله تعالى في سورة البقرة: "**مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ**"(٥). فالفعل (أسلم) مع (اللام) بمعنى: أنَّه جعل وجهه وهو ذاته

---

(١) سورة النساء: من الآية ٤٦، ونفس النص في سورة المائدة: الآية ١٣.
(٢) سورة المائدة: من الآية ٤١.
(٣) كشف المعاني: ص ١٤٦.
(٤) سورة لقمان: من الآية ٢٢.
(٥) سورة البقرة: من الآية ١١٢.

ونفسه لله خالصًا له سالمًا له، ومعناه مع (إلى): أنَّه سلم إليه نفسه كما يسلم المتاع إلى الرجل إذا وقع إليه(١).

ووافقه الرَّازي مضيفًا إلى رأي الزمخشري توضيحًا، فقد قال: "ومن أسلم لله: أعلى درجة مِمَّن يسلم إلى الله؛ لأنَّ (إلى) للغاية، و(اللام) للاختصاص. يقول القائل: أسلمت وجهي إليك، أي: توجَّهت نحوك، وينبئ عن هذا عدم الوصول؛ لأنَّ التوجه إلى الشيء قبل الوصول، وقوله: أسلمت وجهي لك، لا تفيد الاختصاص، ولا ينبئ عن الغاية التي تدلُّ على المسافة وقطعها للوصول"(٢).

النموذج السادس:

وفي قوله تعالى: " نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ"(٣) فقد جاء الاستماع بـ (الباء) و(إلى)، وفي ذلك يقول أبو حيَّان نقلا عن الحوفي قوله في تخريج الآية: "لم يقل يستمعونه، ولا يستمعونك، لمَّا كان الغرض ليس الإخبار عن الاستماع فقط، وكان متضمنًا أنَّ الاستماع كان على طريق الهزء بأن يقولوا مجنون أو مسحور، جاء الاستماع بـ(الباء) و(إلى)؛ ليعلم أن الاستماع ليس المراد به تفهم المسموع دون هذا القصد؛ لأن المعنى: نحن أعلم بالذي يستمعون به إليك وإلى قراءتك وكلامك، إنما يستمعون لسقطك وتتبع عيبك، والتماس ما يطعنون به عليك يعنى في زعمهم، ولهذا ذكر تعديته بـ (الباء) و(إلى)"(٤).

---

(١) الكشاف: ٤٩٩/٣، ٥٠٠.

(٢) تفسير الرازي: ٨٠٥/٤.

(٣) سورة الإسراء: من الآية ٤٧.

(٤) البحر المحيط: ٤٣/٦.

تقدَّمَ الحديثُ عن أدوات الغاية بنوعَيها – التي تفيد الابتداء أو تفيد الانتهاء وما ينوب عنهما- ومعانيها التي تردُ لها؛ ممَّا دفعنا إلى الحديث عن نيابة هذه الأدوات عن بعضها البعض، وأثبتْنَا موقفَ البصريِّين والكوفيِّين من هذه النيابة وتخرجات أهلِ اللغة والنَّحو لهذه الأدوات في موضعها، وعلى ما يبدو – لي- أنَّهم مالوا إلى القول بالنيابة أو التضمين ربمَّا للخروج من مأزق البحث عن السرِّ الدلالي وراء الأداة، وما تكسوه الأداة من معنى خاصٍّ لا ينهضُ به سواها، فالبطليوسي يوضِّحُ لنا مثالًا لتداخل (مِن) و(عن)، ولعله الشَّاهد على إغفال الفروق بين معاني هذه الأدوات؛ حيث قال: "حدثني فلان عن فلان، أي عنه، ولهيت من فلان، أي: عنه" قال المفسر: إنَّما جاز استعمال (مِن) ها هنا مكان (عن)؛ لأنَّه إذا حدَّثه عنه، فقد أتاه بالحديث من قبله، كذلك إذا لهى عنه، فقد لهى من أجله ولسببه، فتكون (مِن) الأولى هي التي يراد بها ابتداء الغاية، و(مِن) الثانية إن شئت جعلتها التي يراد بها الغاية، وإنْ شئت جعلتها التي بمعنى من أجل"(١).

وقد علَّق الدكتور: محمد أمين الخضري على هذا قائلا: "وهذا إغفال لفارق دقيق مستمدٍّ من معنى الحرفين؛ لأنَّ (مِن) في قولك حدث (من) فلان تدلُّ على مباشرتك النَّقل عنه بلا واسطة؛ لأنَّ حديثك كان بدؤه ومنشؤه منه، وإذا قلت حدَّثت (عن) فلان فإنَّ (عن) بمعنى المجاوزة، والبعد فيها تدلُّ على أنَّك نقلت عنه بواسطة، ولم تتلق منه الحديث ابتداءً"(٢).

(١) الاقتضاب : ٢/٢٧٠، ٢٧١.

(٢) من أسرار حروف الجر: للأستاذ الدكتور: محمد أمين الخضري، الأستاذ بكلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، مكتبة وهبة، ط :١، (١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م): ص ٣٣٤.

وهذا ما استفاده الدكتور ممَّا نقله صاحب اللسان عن الجوهري؛ حيث قال: "وممَّا يقع الفرق فيه بين (مِن) و(عن) أنَّ (من) يضاف بها ما قرب من الأسماء، و(عن) يوصل بها ما تراخى، كقولك: سمعت من فلان حديثا وحدثنا عن فلان حديثا"(١).

وفي الدُّر النَّضيد لمجموعة ابن الحفيد يقول: "إذا استعمل السماع بكلمة (من) يقتضي أن يكون السماع مشافهة، بخلاف ما إذا استعمل بكلمة (عن)"(٢).

وسنحاول في السطور الآتية ذكر شيء من الأسرار الدلالية لوجود الأداة للكشف عن بعض أسرار هذا النظم البديع.

النموذج الأول:

قال الله تعالى: " **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ** "(٣)، وفي قوله تعالى: "**قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ** "(٤).

فوجود (مِن) في هذه الآيات وعدمه لا بدَّ أنْ يكون وراءه سر دلالي، فقد أسقطت في خطاب المؤمنين وأثبتت في خطاب الكافرين، جاء في البرهان: "وما

(١) لسان العرب: ٣١٤٣/٥.

(٢) الدر النضيد لمجموعة ابن الحفيد: (سيف الدين بن يحيى بن سعد الدين التفتازاني)، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م): ص ٢٥٧.

(٣) سورة آل عمران: من الآية ٣١، وجاءت لفظة (المغفرة) في القرآن الكريم متعدية بنفسها في سبعة مواضع، وهي: في سورة آل عمران الآيات:(١٦، ١٤٧، ١٩٣)، وفي سورة الأحزاب الآيات: (٧، ٨)، وفي سورة الصف الآيات:(١٠، ١٢)، وفي جميع الآيات للمؤمنين.

(٤) سورة إبراهيم: من الآية ١٠، جاء لفظة (المغفرة) متعدية بمن في ثلاثة مواضع، وكلها خطاب للكافرين وهي الآية: ٣١ من الأحقاف، والآية: ٣، ٤ من سورة نوح.

ذاك إلا للتفرقة بين الخطابين، لئلا يسوي بين الفريقين في الوعد، ولهذا فإنَّه في سورة إبراهيم ونوح والأحقاف حين كان الخطاب للكافرين وعدهم بمغفرة بعض الذنوب بشرط الإيمان، وهو غفران ما بينه وبينهم لا مظالم العباد"(١)، وجاء في الانتصاف: "لأنَّ مقام الكافر مقام قبض لا بسط؛ فلذلك لم يبسط رجاءه في مغفرة جملة الذنوب"(٢) بخلاف مقام المؤمن، فهو مقام البسط، وفيوضات الرحمة والفضل.

ويوضح السهيلي أمر إثبات (مِن) وإسقاطها قائلا: "فإنْ قيل: فما قولكم في نحو قوله تعالى: " **يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ** "(٣)، وقوله: "**يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم** "(٤) قلنا: هي متعلقة بمعنى الإنقاذ والإخراج من الذنوب، وإنَّما دخلت لتؤذن بهذا المعنى، ولكن لا يكون ذلك في القرآن إلا حيث يذكر الفاعل الذي هو الذنب، نحو:(لكم) لأنَّه المنقذ المخرج من الذنوب بالإيمان، ولو قلت: "يغفر من ذنوبكم" دون أن تذكر الاسم المجرور لم يحسن إلا على معنى التبعيض؛ لأنَّ الفعل الذي كان في ضمن الكلام وهو الإنقاذ قد ذهب بذهاب الاسم الذي هو واقع عليه، فإن قلت: فقد قال: "**ربنا اغفر لنا ذنوبنا**" وقال في سورة الصف: "**يغفر لكم ذنوبكم**" فما الحكمة؟ فالجواب أن هذا إخبار من المؤمنين الذين سبق لهم الإنقاذ من ذنوب الكفر بإيمانهم، ثم وعدوا على الجهاد بغفران ما اكتسبوا في الإسلام من الذنوب، وهي غير محيطة بهم، كإحاطة الكفر المهلك بالكافر"(٥).

---

(١) البرهان: ٤٢٥/٤ وما بعدها.

(٢) الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال: لابن المنير الإسكندراني، مصطفى البابي الحلبي، ط: ١، (١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م): ٥٢٧/٣.

(٣) سورة نوح: من الآية ٤.

(٤) سورة الأحقاف: من الآية ٣١.

(٥) نتائج الفكر: للسهيلي: ص ٢٣٢ وما بعدها.

النموذج الثاني:

في قوله تعالى: " **وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ** "(١) فقد جاء الله سبحانه بحرف الإلصاق في قوله: (بالمعروف)، أما في قوله تعالى: " **وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ** "(٢) .

فقد سبقت كلمة (معروف) في هذه الآية بـ(من) ولا شك أن ذلك التغيير من الأداة(الباء) إلى (من) وراءه سر دلالي يكشفُ عن بلاغة النظم الحكيم وروائع إعجازه، فلما كان الحديث في الآية الأولى خاصًّا بحقهن في الزواج بعد انقضاء العدة خصَّ ما يفعلنه في أنفسهن بالأمر المتعارف عليه والذي أباحه الشَّرع وهو الزَّواج، وعداه بحرف الإلصاق دليلا على وجوب الالتزام بشرع الله واستصحابه فيما فرض لهن. وحينما كان الحديث عنه عموم حقوق المرأة المتوفى عنها زوجها بعد انقضاء العدة، وتمتعها بحقها في بيت الزوجية وخروجها منه، والزواج واحد من أمور كثيرة مباحة للمرأة مما شرع الله من حقوق جاء حرف التبعيض (من) مع تنطير (معروف) ليدل على أن الزواج أحد هذه الحقوق التي لا تمنع منها، ويكشف الإسكافي ذلك الفرق بين الأداتين قائلا: "إن الأول تعلق بقوله : " **وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ** "، أي: لا جناح عليكم في أن يفعلن في

(١) سورة البقرة: من الآية ٢٣٤.

(٢) سورة البقرة: من الآية ٢٤٠.

أنفسهن بأمر الله، وهو ما أباحه لهن من التزوج بعد انقضاء العدة، فالمعروف ها هنا أمر الله المشهور، وهو فعله وشرعهن وبعث عليه عباده. والثاني: المراد به فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من جملة الأفعال التي لهن أن يفعلن من تزوج أو قعود، فالمعروف ها هنا فعل من أفعالهن، يعرف في الدين جوازه، وهو بعض ما لهن أن يفعلنه ولهذا المعنى خصَّ بلفظة (من) ونكِّر، فجاء المعروف في الأوَّل معرف اللفظ لما أشرت إليه، وهو أن يفعلن في أنفسهن بالوجه المعروف المشهور الذي أباح الشرع من ذلك، وهو الوجه الذي دلَّ الله عليه وأبانه فعرف؛ إذ كان معرفة مقصودًا نحوه، وكذلك خصَّ بالباء وهي للإلصاق، والثاني: كان وجهًا من الوجوه التي لهن أن يأتينه فأخرج مخرج النكرة لذلك"(١).

النموذج الثالث:

في قوله تعالى: "**قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ**"(٢) فـ (مِن) في الآية قال ابن الجوزيّ: إنَّ (مِن) هنا بمعنى: (الباء)، وكيف أفادت تعدد صنوف العذاب، واختلاف أشكاله وألوانه، وكأنَّه يقول: ماذا تصنعون حين يحلُّ بكم ما لا طاقة لكم به من عذاب الله، ويفاجئكم من ضروب بلائه بين عشية أو ضحاها، أو كما قال النيسابوري: "والعذاب كله مرُ المذاق، موجِب للنفار، فأي شيء يستعجلون منه، وليس شيء منه يوجِب الاستعجال"(٣).

---

(١) درة التنزيل: ص ٥٢، ٥٣.

(٢) سورة يونس: الآية ٥٠.

(٣) غرائب القرآن: للنيسابوري، تحقيق: إبراهيم عطوة عوض، مكتبة مصطفى الحلبي، ط:١ (١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م): ٨٩/١١.

وذلك خيرُ ردٍ على تهكمهم وسخريتهم التي حكَاها القرآن قبل ذلك: " **وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ**"(١).

أمَّا قوله تعالى: " **أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ** "(٢) وتعديته بالباء، فلأنَّ للإلصاق دلالته على أنَّه قد نزل بهم ما استعجلوه، ووقع بهم ما كانوا يتمنون وقوعه، فهذا موضع، وذلك موضع آخر، ولا يصلح أبدًا أنْ تحكمَ على حرف بأنَّه يؤدِّي معنى حرف آخر لمجرد أنَّه تعدَّى بذلك الحرف أكثر منه في مواطنَ لها سياقاتها ودواعيها(٣).

النموذج الرابع:

في قوله تعالى: " **أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ** "(٤).

جاء في الإتقان في علوم القرآن أنَّ كثيرًا من المفسرين ذهبوا إلى أنَّ (مِن) ليست مزايلة لمعناها الأصلي من الدلالة على الابتداء إلى معنى التَّعليل(٥). ولكن الأظهر – عندي والله أعلم- أنَّ دلالة (مِن) على الابتداء هي التي جسدت مشاعر الرُّعب والفزع الذي استبد بالسائرين في هذا الجو المظلم برعده وبرقه، فقد استولى عليهم الخوفُ وأحاطَهم حتَّى كادوا يضعون أصابعَهم بكاملها في آذانهم لأوَّل بارقة من الصواعق، ولنا أنْ نتخيل تتابع الصَّواعق واشتدادها عليهم، فكان

(١) سوة يونس: الآية ٤٨.

(٢) سورة يونس: الآية ٥١.

٣() من أسرار حروف الجر: ص ٣٥٧.

(٤) سورة البقرة: من الآية ١٩.

(٥) الإتقان في علوم القرآن: ١٧٦/١.

الإسراع منهم بوضع أصابعهم من بدء الصواعق، وتتجسد هذه الصورة بالمجاز المرسل في (أصابعهم) ليرسمَ لنا صورة مادية للحياة المفزعة الوجلة التي يعيشها هؤلاء المنافقون، فما أعظمَ النظمَ الحكيمَ.

النَّموذجُ الخامِس:

من روائع النَّظم البديع قوله تعالى: "**وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ** "[١]، وقوله تعالى: " **رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ** "[٢]. أمَّا في قوله تعالى: " **وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ** "[٣]. يقول العز بن عبد السلام: "النصر إن استعمل بـ (على) كان بمعنى الغلبة، نحو: " **وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ**" وإن استعمل بـ (من) كان بمعنى المنع " **وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ** "[٤].

وقد ذكرت المعاجم اللغوية أنَّ النَّصر معناه العون، وهذا العون قد يكون بتغليبه على خصمِه، أو يمنع خصمه منه، "وفي الحديث: انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا، وتفسيره: أن يمنعه من الظلم إنْ وجده ظالما، وإن كان مظلومًا أعانه على ظالمه"[٥]. قال أبو حيَّان: " **وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ**" عدَّاه بمن لتضمنه معنى (نجيناه) بنصرنا من القوم أو عصمناه ومنعناه، أي: من مكروه القوم لقوله: "**فَمَن**

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٠.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٤٧.

(٣) سورة الأنبياء: من الآية ٧٧.

(٤) الفوائد في مشكل القرآن: ص ٥٥.

(٥) لسان العرب: ٤٤٣٩/٣.

يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا"، وقال الزَّمخشري: هو نصر الذي مطاوعه انتصر، وسمعت هذليًّا يدعو على سارق: اللهم انصرهم منه، أي: اجعلهم منتصرين منه، وهذا معنى في نصر غير المتبادر إلى الذهن، وقال أبو عبيدة: (من) بمعنى (على)، أي: ونصرناه على القوم"(١).

وقد فرق الألوسي بين نصره الله على عدوه، ونصره من عدوه، بأن المتعدي ب(على) يدل على مجرد الإعانة، والمتعدي بـ (من) يدل على استتباع ذلك للانتقام من العدو والانتصار عليه(٢). وهذا يتفق مع السياق القرآني؛ لأن الآية التي قبل هذه الآية مدحت بتنجية الله – تعالى- لنوح – عليه السلام-، وذلك هو نصره من عدوه" وَنُوحًا إِذۡ نَادَىٰ مِن قَبۡلُ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ "(٣)؛ لذا قال الله – تعالى- : " وَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ " فهذا زيادة بيان بالدلالة على الانتقام منهم، وقد كان ذلك بإغراقهم، وهو ما أفاده النيسابوري بقوله: "وزاده بيانا بقوله: " وَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ "، تقول: نصرته منه فانتصر، إذ جعلته منتصرا منه، أي: منتقمًا"(٤).

النموذج السادس:

قال الله تعالى: " **فَكَيۡفَ إِذَا جَمَعۡنَٰهُمۡ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ** "(٥).

---

(١) البحر المحيط: ٣٢٨/٦، الكشاف: ٥٧١/٢، روح المعاني: ٧٣/١٧.

(٢) السابق: ٧٣/١٧.

(٣) سورة الأنبياء: الآية ٧٦.

(٤) غرائب القرآن: ٤٤/١٧.

(٥) سورة آل عمران: الآية ٢٥.

فقد جاء التَّعبير القرآني في الآية بالأداة (اللام) مع كلمة (يوم)، وربما يكون التساؤل هنا لماذا آثر الذِّكر الحكيم التعبير بهذا الحرف (اللام) على غير المتوقع؟، إذا كان المتوقع استخدام (في)، وهذا التساؤل هو ما طرحه الإمام الطبري؛ حيث قال: "فإن قال قائل: وكيف قيل: " **فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ** " ولم يقل: في يوم لا ريب فيه؟ قيل: لمخالفة معنى (اللام) في هذا الموضع معنى (في) وذلك أنه لو كان مكان (اللام) (في) لكان معنى الكلام: فكيف إذا جمعناهم في يوم القيامة، ماذا يكون لهم من العذاب والعقاب؟ وليس ذلك المعنى في دخول (اللام)، ولكن معناه مع (اللام): فكيف إذا جمعناهم لما يحدث في يوم لا ريب فيه، ولما يكون في ذلك اليوم من فضل الله القضاء بين خلقه، ماذا لهم حينئذ من العقاب وأليم العذاب؟ فمع (اللام) في "**ليوم لا ريب فيه**" نية فعل، وخبر مطلوب ترك ذكره، أجزأت دلالة دخول (اللام) في (اليوم) عليه، منه. وليس ذلك مع (في) فلذلك اختيرت (اللام) فأدخلت في (اليوم) دون (في)"(١).

وإلى هذا ذهب ابن عادل فقال: "فإن قيل: لِمَ قال: "ليوم" ولم يقل: في يوم؟ فالجواب: ما ذكرناه من أنَّ المراد: لجزاء يوم، أو لحساب يوم، فحذف المضاف ودلت (اللام) عليه. قال الفراء: اللام لفعل مضمر، فإذا قلت: جُمِعُوا ليوم الخميس، كان المعنى: جمعوا لفعل يوجد في يوم الخميس، وإذا قلت: جُمِعُوا في يوم الخميس لم تُضمِر فعلا، وأيضا فمن المعلوم أن ذلك اليوم لا فائدة فيه إلا المجازاة. وقال الكسائي: (اللام)بمعنى (في)"(٢).

---

(١) تفسير الطبري: ٦/٢٩٤، ٢٩٥.

(٢) تفسير اللباب لابن عادل: اللباب في علوم الكتاب: لأبي حفص عمر بن عادل الحنبلي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط: ١ (١٤١٩هـ): ٤/٣.

النموذج السابع:

قال الله تعالى:

" **إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ** "(١).

لقد جاء التعبير القرآني البديع بالأداة (على) التي نابت عن (مِن) الابتدائية، وهذا العدول إلى حرف الاستعلاء (على) ليفتح سبحانه باب التوبة على مصرعيه واسعا، ويبسط يده لمَن أغرق نفسه بالمعاصي والذنوب فيقوى الرجاءُ والأمل؛ فيقبل التائب على ربه، ويتفلت من حبائل الشيطان، تاركًا أوزارَ الماضي وراءَه مقبلا على فيوضات رحمة الله، وهذا ما يُوحي به حرف الاستعلاء من تحقق ثبوت ما وُعِدُوا به وضمان قبول توبتهم بحكم أنَّ الله إذا وعد فلن يخلف وعَده، ولو أنَّه قال: إنَّما التَّوبة مِن الله لمَا أعطى للتأبين هذا الوعدَ الذي يقطعه على نفسه ممَّا يثبط الهمم ويدفع إلى اليأس(٢).

النموذج الثامن:

ومن بديع النَّظم القرآني قوله تعالى: " **وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ** "(٣).

قال الأخفش: "أمَّا قوله: "**وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ** " فإنَّك تقول: خلَوتُ إلى فلان في حاجة، كما تقول: خلوت بفلان"(٤) . ويفهم من كلام الأخفش أن كلا التعبيرين يدلان على معنى واحد، وهو الانفراد. على أنَّنا نجد تفصيلا عند الرَّاغب حيث

---

(١) سورة النساء: من الآية ١٧.

(٢) من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم: ص ٩٧.

(٣) البقرة: الآية ١٤.

(٤) معاني القرآن، للأخفش: ٤٦/١.

فرق بين التعبيرين المتعديين، موضحًا معنى الحرف المتعدِّى به فقد قال: "وخلا فلان بفلان: صار معه في خلاء، وخلا إليه: انتهى إليه في خلوة"[١].ومن قول الرَّاغب نفهم أنَّ تعدي الفعل بالباء اكتسب من معنى المصاحبة، فيها دلالته على الانفراد به، وإلى خلعت من معناها عليه ما دلَّ على قصده والانتهاء إليه، فهي على بابها من انتهاء الغاية، وكشفت في الآية عن دخائل نفوس المنافقين وغايتهم، وانصراف قصدهم إلى لقاء إخوانهم من الشياطين، بما يدلُّ على أنَّهم خرجوا من أصله، فهي غاية وجهتهم الحقيقية، والدَّليل على ذلك قوله تعالى: " **وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟** " فهو لقاء لم يقصد إليه غاية وعلة، وإنَّما هو لقاء مفروض عليهم بفعل الطريق والسَّير فيه، أي: لقاء المصادفة، أمَّا "**خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ** " فهو لقاء القصد والنية والهدف منهم، وترقُّب الخلوة معهم يدلُّ على ذلك قوله تعالى: " **إِنَّا مَعَكُمْ** " وأشعر فيها بالتودد من المنافقين إلى إخوانهم الشياطين ويدلُّ على ذلك قولهم للمؤمنين عند لقائهم "**قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا**" جملة خالية من التوكيد، أمَّا قولهم لإخوانهم الشياطين "**إِنَّا مَعَكُمْ**" تشعر باسترضائهم عنهم، وهذا ما يؤديه (إلى) التي أفادت القصد والغاية في الانفراد بهم، ولو جاء التعبير خلوا بشياطينهم، لما أفاد غير الانفراد بهم، وما كشفت لنا (الباء) عن قصدهم وما في خواطرهم[٢].

النموذج التاسع:

ومن روائع النَّظم البَديع وأسرار الدلالة القرآنية قوله تعالى: "**فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ** "[٣].

---

(١) المفردات، للراغب: ص٢٢٦.

(٢) البحر المحيط: ١/٢٠٢، وما نقلته عن كلام أبي حيان هنا ليس نصا بل المضمون فقط.

(٣) سورة البقرة: من الآية ١٧٨.

قال أبو حيَّان:" و(عفا) يتعدى بـ (عن) إلى الجاني وإلى الجانية، تقول: عفوت عن زيد وعفوت عن ذنب زيد، فإذا عديت إليهما معًا تعدت إلى الجاني بـ(اللام)، وإلى الذنب بـ(عن)، تقول: عفوت لزيد عن ذنبه، وقوله: " فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ " من هذا الباب، أي: فمن عفى له عن جنايته، وحذف عن جنايته لفهم المعنى ولا يفسر (عفي) بمعنى: ترك؛ لأنه لم يثبت ذلك معدى إلا بالهمزة، ومنه: أعفوا اللحى، ولا يجوز أن تضمن عفى معنى ترك، وإن كان العافي عن الذنب تاركًا له لا يؤاخذ به ؛ لأن التضمين لا ينقاس قال الزمخشري: "فإن قلت: فقد ثبت قولهم عفا أثره إذا محاه وأزاله فهلا جعلت معناه فمن محي له من أخيه شيء، قلت: عبارة قيلت في مكانها والعفو في باب الجنايات عبارة متداولة مشهورة في الكتاب والسنة، واستعمال الناس فلا يعدل عنها إلى أخرى قلقة نائبة عن مكانها، وترى كثيرا ممن يتعاطى هذا العلم يجترئ إذا عضل عليه تخريج المشكل من كلام الله على اختراع لغة وادّعاء على العرب ما لا تعرف، وهذه جرأة يستعاذ بالله منها"، ثم قال أبو حيان: "وإذا ثبت أن عفا يكون بمعنى محَا فلا يبعد حمل الآية عليه ويكون إسناد عفي لمرفوعه إسنادًا حقيقيًّا؛ لأنَّه إذ ذاك مفعول به صريح، وإذا كان لا يتعدَّى كان إسناده إليه مجازًا وتشبيها للمصدر بالمفعول به، فقد يتعادل الوجهان أعني كون عفا اللازم لشهرته في الجنايات وعفا المتعدي لمعنى محا لتعلقه بمرفوعه تعلُّقًا حقيقيًّا..."[1]. وما يعنينا هنا هو إيثار التعبير بحرف الاختصاص (اللام) فكان أبلغَ من (عن).

كما أنَّ (الباء) في قوله: "بإحسان" تدلُّ على الإحسان الذي التصق بالمحسن إليه ودرج فيه.

---

(١) البحر المحيط: ٢/١٥، ١٦.

النموذج العاشر:

ومِن الأسرار الدلاليَّة لأدوات الغاية قوله تعالى: **"أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ"**(١).

قال أبو حيَّان: "وعدي بـ (إلى) وإن كان أصله التعدية بالباء لتضمينه معنى الإفضاء وحسن اللفظ به هذا التضمين فصار ذلك قريبًا من الكنايات التي جاءت في القرآن مِن قوله : فلما تغشاها، ولا تقربوهن، فأتوا حرثكم، فالآن باشروهن..."(٢)، وحين نذهب إلى النُّحاة والمفسِّرين نتبيَّن مذهبَهم في تعدِّي الرَّفث نجدهم فريقين؛ **الأوَّل:** كما ذهب أبو حيَّان يضمِّن الرَّفث معنى الإفضاء. **والثاني:** يذهب إلى القول بنيابة (إلى) عن (الباء)(٣).

والأظهر عندي أنَّ (إلى) في الآية على بابها لمعنى الانتهاء؛ لأنَّ ذلك هو الأقرب إلى ما قصد إليه النظم البديع – والله أعلم- من معنى لا تنهض به (الباء) فهي تدلُّ على المصاحبة والقرب الدائم من الزوجة، نعم هذا ما أحله الله، وهو شرعه الحكيم، ولكن السِّياق هنا مختلف فهذا الشهر شهر رمضان، قد خص بأفضلية عما سواه، فيه تعلو همّة المسلم والإقبال على الله تاركًا بعض شهواته؛ لأنَّ فيه موسم الطاعات والعبادات من صوم وصلاة وتلاوة وذكر، لذلك كان التعبير بالرَّفث بدلا من كنايات الجماع الأخرى كالإفضاء. فسياق الآية الكريمة لا ينسجم معه استخدام حرف الإلصاق (الباء) لأنَّه يشيع كما قلنا: المصاحبة والإلصاق بهن، إنَّما يلائمه حرف الانتهاء الذي يقفُ عند حدِّ الإباحة، وقضاء

(١) سورة البقرة: من الآية ١٨٧.

(٢) البحر المحيط: ٥٥/٢.

(٣) منتخب قرة العيون النواظر في الوجوه والنظائر في القرآن الكريم: لابن الجوزي، تحقيق: محمد السيد طنطاوي، منشأة دار المعارف بالأسكندرية،١٩٧٩م: ص ٤٠.

حاجة الرَّجل من المرأة [١] عندما تدعوه الحاجة إليها حتَّى لا يفوته فضل التقرب والقرب من الله والإقبال على العبادات والانشغال بها بدلا من الانشغال والالتصاق بالزوجة.

النموذج الحادي عشر:

ومِن بديع النَّظم القُرآني ما قرأناه في سورة البقرة في قوله تعالى: "**وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ**" [٢]، وفي سورة آل عمران قال الله تعالى: "**سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ**" [٣]، وفي قوله تعالى: "**وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ**" [٤]، وفي قوله تعالى: "**أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٖ**" [٥]. فقد جاء التعبير القرآني في سورة البقرة بأداة انتهاء الغاية (إلى) وفي باقي الآيات بحرف الوعاء (في)، فلم يقل سبحانه: في التهلكة، فاستخدام (إلى) في آية سورة البقرة لها دلالتها لا ينهض بها حرف الوعاء (في) وهو أن هؤلاء البخلاء يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله سائرون في طريق ينتهي به إلى الهلاك فـ (إلى) تدلُّ على انتهاء الغاية بهم وهي الهلاك المحقق، ولو استخدم (في) لدلَّ على أنَّ هؤلاء البخلاء انغمسوا في الهلاك وأحاطهم، وهذا ليس مراد الآية؛ إذ التَّعبير بـ(في) يقضي بالحكم عليهم، أما (إلى) فتدل على التحذير المبكر قبل انغماسهم ووقوعهم في المحظور.

---

(١) من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم: ص ٢٨٥ بتصرف.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٩٥.

(٣) سورة آل عمران: من الآية ١٥١.

(٤) سورة النحل: من الآية ١٥.

(٥) سورة ق: الآية ٢٤.

النموذج الثاني عشر:

ولنتأمَّل قولَ الله – تعالى- في هاتين الآيتين لنقفَ على عظمة النَّظم البديع – فسبحان من هذا كلام-، قال تعالى عند توصية الإنسان بوالديه: " **وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا** "(١)، وقال في توصية الوالدين بالأبناء: " **يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ** "(٢)؛ إذ إنَّ غاية ما يطلب من الأبناء هو حسن الإحسان، وحسن صحبة آبائهم كبارا حتى وإن كان منهم طلب الشرك بالله، لذا قال سبحانه: "**وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا**"(٣).

لذلك جاء التَّعبير القرآني بحرف الإلصاق (الباء) فقال: (بوالديه)، أما في قوله تعالى: " **يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ** " فجاء التعبير بحرف الوعاء (في)؛ لأنَّ إحسان الآباء لأولادهم أمر فطري لا يحتاج توصية، فكانت الوصية لأمر آخر هو الوصية بحسن توزيع الميراث بالعدل لغرس المحبة بين الأبناء، لذا عُدِّي فعل الإيصاء إحسانا بالوالدين بحرف الإلصاق، وعُدي فعل الإيصاء بـ(في) الظرفية حين كان الموصي هم الآباء والموصى به هو العدل بينهم، والموصى فيه هو قلوب الأبناء(٤).

النموذج الثالث عشر:

قال الله تعالى: " **يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ** "(٥)، وقال سبحانه: "**وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ**"(٦)، فقد تعدَّى الفعل (مشى) بحرفين هما: (في) و(الباء)، فهل لذلك دلالة؟

---

(١) سورة العنكبوت: من الآية ٨.
(٢) سورة النساء: من الآية ١١.
(٣) سورة لقمان: من الآية ١٥.
(٤) من أسرار حروف الجر: ص١٩٣ بتصرف.
(٥) سورة البقرة: من الآية ٢٠.
(٦) سورة الحديد: من الآية ٢٨.

والجواب: إنَّ المنافقين في الآية الأولى لم يتخذوا القرآن نورًا وهداية، كما اهتدى به غيرهم، فإذا به يضيء من حولهم، ولا يضيء لهم، وينتفع به سواهم وهم لا ينتفعون، لذلك هم يتخبطون في الضوء ويتعثرون فيه، ولا تستطيع أبصارهم أن تتعدَّى مواطن أقدامهم، أمَّا المؤمنون كما تصورهم الآية الثانية: فهم يهتدون بالقرآن، وتصحبهم هدايته، يضيء لهم السَّبيل، ويبلغهم الأماني، وهو معهم لا يفارقهم، لذلك كان التعبير في الآية الأولى بحرف الوعاء (في)، وفي الثانية بحرف الإلصاق (الباء)[(١)].

النموذج الرابع عشر:

وممَّا دار حوله جدل لغوي وفقهي آية الغسل والمسح في قوله تعالى: " **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ** "[(٢)] .

جاء في كشف الأسرار للبزدوي: "أنَّ المرافق داخلة تحت الغسل؛ لأنَّ المقصود من ذِكر (المرافق) إسقاط ما وراءها؛ إذ لولا ذكرها لاستوعبت الوظيفة كل اليد فلا تدخل تحت الإسقاط، بل بقيت داخلة تحت الوجوب بمطلق اسم (اليد)"[(٣)]. وقال ابن قدامة: "لا خلاف بين علماء الأمة في وجوب غسل اليدين في الطهارة، وقد نصَّ الله – تعالى– عليه بقوله سبحانه: "**وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ** " وأكثر العلماء على أنَّه يجب إدخال المرفقين في الغسل، مِنهم: عطاء ومالك"[(٤)].

---

(١) من أسرار حروف الجر: ص ١٩٢ بتصرف.

(٢) سورة المائدة: من الآية ٦.

(٣) كشف الأسرار: للبزدوي: ١٧٨/٢.

(٤) المغني لابن قدامة: ١٢٢/١، الأم، للشافعي: ٢٢/١.

وذكر صاحبُ الكشَّاف :"أنَّ (إلى) تفيد معنى الغاية مطلقًا، فأمَّا دخولها في الحكم وخروجها منه فأمرٌ يدورُ على الدَّليل..."(١).

فقد تعدَّى فعلُ الغُسل إلى الوجوه والأيدي والأرجل بنفسه، في حين تَعدَّى فعل المسح إلى الرأس بالباء – ورغم الخلاف بين أهل اللغة والفقه- وذلك لأنَّ المسح يقتضي إلصاق اليد بالممسوح ومباشرته بخلاف الغسل الذي يتطلب صبَّ الماء على العضو، ولو لم يباشره العضو الغاسل، والدَّليل على ذلك تعدَّي فعل الغسل بنفسه في الوضوء، وعدّي إليهما فعل المسح بالباء في التيمم، لما كانا من الممسوحات، فقال تعالى: "فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ "(٢) فالباء لها دلالةُ المباشرة على المسح باليدِّ للرأس وإلصاقه بها، وليس التبعيض من دلالتها.

النموذج الخامس عشر:

قال تعالى: "ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ "(٣).

جاء في تفسير الخازن: "قال النضر بن شميل: (الباء) في قوله (بربهم) بمعنى: عن، أي: عند ربِّهم يعدلون وينحرفون، من العدول إلى الشيء"(٤).

فالفعل (عدل) يتعدى بـ (عن) دالا على الانحراف عن الشيء وتجاوزه، ويتعدى بـ (إلى) دالا على الميل إليه والاتجاه نحوه، فهو كذلك يتعدى بـ (الباء) دالا على معنى التَّسوية، جاء في لسان العرب: "عدلت الشيء بالشيء أعدله

(١) الكشاف للزمخشري: ٥٩٦/١، وقد أوردنا هذا الخلاف من قبل.

(٢) سورة المائدة: من الآية ٦.

(٣) سورة الأنعام: من الآية ١.

(٤) تفسير الخازن: ١١٧/٢.

عدولا، إذا ساويته به"(١). فتسوية المشركين بين الخالق والمخلوق، بين من خلق السموات والأرض، وجعل منها الظلمات والنور، وبين ما لا يخلقون شيئًا، هو كمال النعي على هذه العقول وغاية التَّسفِيه لأحلامهم.

يقول صاحبُ المنار: "ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ " هذه الجملة معطوفة على جملة "ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ" أو على جملة "خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ" وقد عطفت بـ(ثمَّ) الدَّالة على بعد ما بين مدلولي المعطوف والمعطوف عليه، لإفادة استبعاد ما فعله الكافرون، وكونه ضد ما كان يجب عليهم للإله الحقيق بجميع المحامد، لكونه هو الخالق لجميع الكون العلوي والسُّفلي، وما فيه من الظلمات الحسية والمعنوية، والهادي لما فيه النُّور الذي يهتدي به الموفقون في كل ظلمة منها، كأنَّه قال: وهم مع ذلك يعدلون به غيره، أي: يجعلونه عدلا له، أي: عديلا مساويًا له في كونه يُعبد، ويُدعى لكشف الضر وجلب النفع، فهو بمعنى: يشركون به"(٢).

و(الباء) في الآية أعانت على التجوز بالحذف، ممَّا يدلُّ على أن المحذوف وهو المفعول به أحقر من أنْ يصرح بذكره في حضرة هذا الخالق العظيم، أو الدلالة على أنه ليس لله عِدْل حتَّى يذكر ويُسوَّى بالخالق سبحانه وتعالى جل شأنه.

النموذج السادس عشر:

ومن فصاحة التعبير وروائع النَّظم البديع قوله تعالى: **" قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّ "(٣).**

---

(١) لسان العرب: ٢٨٤٠/٥ مادة (عدل).

(٢) تفسير القرآن الكريم: محمد رشيد رضا، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان: ٢٥٩/٧.

(٣) سورة يونس: من الآية ٣٥.

فقد جاء التَّعبير القُرآني بـ (إلى) مُعدًّى بها الفعل (يهدى) المنسوب إلى الشركاء، في حين نجد الهداية المنسوبة لله سبحانه عُدِّي فيها بـ (اللام) فهي للاختصاص ولا يملك هذه الهدايةَ إلا هو جلَّت قدرتُه وقد وضَّح خصوصيةَ الحرفين فخرُ الرَّازِي عند حديثه عن قول الله تعالى: "**إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا**"(١) قال: "ففيه دقيقةٌ، وهي أنَّه لم يقل: وجهت وجهي إلى الذي فطر...، بل ترك هذا اللفظ، وذكر قوله: "**وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي** "، والمعنى: أنَّ توجيه وجه القلب ليس إليه؛ لأنَّه متعالٍ عن الحيز والجهة، بل توجيه وجه القلب إلى خدمته وطاعته لأجل عبوديته، فترك كلمة (إلى) هنا، والاكتفاء بحرف (اللام) دليلٌ ظاهرٌ على كَون المعبود متعاليًا عن الحيِّز والجهة"(٢).

النموذج السابع عشر:

قال الله تعالى: " **رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا** "(٣)،

قال أبو حيَّان:" "**مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ**" وذلك أنَّ المنادي إذا أطلقه ذهب الوهم إلى منادٍ للحرب؛ أو لإطفاء، أو لإغاثة المكروب، أو لكفاية بعض النوازل أو لبعض المنافع، فإذا قلت : "**يُنَادِي لِلْإِيمَانِ**" فقد رفعت من شأن المنادى، وفخمته، و(اللام) متعلقة بينادي، ويعدى ينادي ودعا وندب بـ(اللام)، وبـ(إلى)، كما يعدي بهما هدى لوقوع معنى الاختصاص، وانتهاء الغاية جميعًا، ولهذا قال

---

(١) سورة الأنعام: من الآية ٧٩.

(٢) التفسير الكبير (مفاتيح الغيب): للرازي (فخر الدين محمد بن عمر الرازي)، نشر دار الفكر، بيروت، ط:١، ١٤٢٥هـ: ١٣/٥٧.

(٣) سورة آل عمران: من الآية ١٩٣.

بعضهم: إنَّ (اللام) بمعنى: إلى لما كان ينادي في معنى يدعو حسن وصولها باللام بمعنى: إلى، وقيل: اللام لام العلة، أي: لأجل الإيمان، وقيل: اللام بمعنى الباء، أي: بالإيمان والسماع محمول على حقيقته، أي: سمعنا صوت منادٍ، قيل: ومن جعل المنادى هو القرآن، فالسماع عنده مجاز عن القبول، و(أن) مفسرة، التقدير: بأن آمنوا، فعلى الأول: لا موضع لها من الإعراب، وعلى الثاني: لها موضع..."[١].

وعلى هذا يكون أبو حيَّان قد أورد آراء المفسرين في معنى (اللام) فى قوله تعالى:" لِلْإِيمَٰنِ" دون ترجيح أو بيان العلة من وجود (اللام)، وذهب الزمخشري إلى أنَّ فعل النداء يعدي بـ (اللام) و(إلى) على السواء، لصحَّة وقوع الحرفين معه، حيث قال: "ويقال: دعاه لكذا، وإلى كذا، وندبه له، وإليه، وناداه له وإليه، ونحوه: هداه للطريق وإليه، وذلك أنَّ معنى انتهاء الغاية، معنى الاختصاص واقعان جميعا"[٢]. ولم يذكر المفسرون العلة من إيثار حرف الاختصاص هنا، بل اكتفوا بدلالتها على التعدية، مثل: إلى، في حين جاء التعبير بحرف الانتهاء (إلى) في قوله تعالى : "**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ**"[٣]، وجاء حرف الاختصاص في قوله : (للصلاة) بـ (اللام)، ثمَّ في سورة المائدة جاء التعبير بحرف الانتهاء في قوله: "**وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا**"[٤].

---

(١) البحر المحيط، لأبي حيان: ١٤٨/٣، التحرير والتنوير: ١٩٩/٤، فتح القدير: للشوكاني: ٤١١/١.

(٢) الكشاف، للزمخشري: ٤٨٩/١.

(٣) سورة الجمعة: من الآية ٩.

(٤) سورة المائدة: من الآية ٥٨.

إنَّ المتأمل في الآيات يجد أن الفعل (نادى) ومشتقاته قد أتى معدى بأداة الانتهاء (إلى) تارةً وأخرى بأداة الاختصاص (اللام) ولم يكن هذا ضربًا من ضروب العشوائية، بل هو نظم بديع من ربِّ العالمين، فلا بدَّ أن يكون لهذا سر دلالي، وجوابه- والله أعلى وأعلم بمراده- أنَّ فعل النداء أو الدُّعاء حين يُعدَّى بـ (إلى) يكون الغرض حثَّ المنادى على القصد إلى الشيء والانتهاء إليه، وفي ذلك يقول الراغب: "والدُّعاء إلى الشيء الحث على قصده"(١)، وحين يُعدَّى بـ (اللام) يكون الغرض تخصيصَ النداء، والدَّعوة بالشيء المطلوب إظهار الاهتمام به، ووفور الرغبة في تحقيقه والسعي له، وهذا الفرق الدَّقيق هو الذي من أجله جاءت (إلى) في قوله تعالى: **"وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ"** .

وهو نداء عام لكل سامع وإلى عموم الصلوات، حثًا على القصد إليها، والاتجاه إلى مكانها في المساجد تحصيلا لفضل الجماعة، وحين كان النداء للمؤمنين، والصلاة خاصة في يوم خاصٍّ، هي صلاة الجمعة، حيث مكانتها الخاصة في نفوس العابدين جاء التعبير بـ (اللام) لتكسب الفعل ظلالًا لا توجد في غير هذه الأداة، لذلك كان إيثار التعبير بـ (اللام) أولا ثم بـ (إلى) في قوله تعالى: "**فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ** ".

النموذج الثامن عشر:

قال تعالى: "**وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ** "(٢). فهذا نهى للرَّسول – صلى الله عليه وسلم- عن أن يحزن من فعل قوم يحرصون على الكفر، أي: على أعماله، وجاء التعبير بحرف الوعاء (في) لبيان مدى انغماسهم في الكفر، ولو كان التعبير

(١) المفردات: ص ٢٤٥.

(٢) سورة آل عمران: من الآية ١٧٦.

بـ (إلى) لكان القصد وصولهم إليه، ولكن نشعر مع (في) بمدى إحاطة الكفر بهم ورسوخهم فيه، يقول ابن عاشور: " **"يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ"** يتوغلون فيه ويعجلون إلى إظهار تأييده والعمل عند سنوح الفرص، ويحرصون على إلقائه في نفوس الناس، فعبَّر عن هذا المعنى بقوله: (يسارعون)، فقيل: ذلك من التضمين، ضمَّن يسارعون معنى يقعون، فعدي بـ (في)، وهي طريقة الكشاف وشروحه، وعندي أن هذا استعارة تمثيلية: شبه حال حرصهم وجدّهم في تكفير الناس وإدخال الشك على المؤمنين وتربصهم الدوائر وانتهازهم الفرص بحال الطالب المسارع إلى تحصيل شيء يخشى أن يفوته وهو متوغل فيه متلبس به، فلذلك عدّي بـ (في) الدالة على سرعتهم سرعة طالب التمكين، لا طالب الحصول؛ إذ هو حاصل عندهم، ولو عدّي بـ (إلى) لفهم منه أنَّهم لم يكفروا عند المسارعة. قيل: هؤلاء هم المنافقون، وقيل: قوم أسلموا ثمَّ خافوا من المشركين فارتدوا"(١).

النموذج التاسع عشر:

قال الله تعالى على لسان موسى – عليه السلام- خطابًا لفرعون: **"وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾"**(٢) . عند تناول الاخفش لبيان هذه الآية قال: "وقال بعضهم: **"عَلَيَّ أَن لَّآ أَقُولَ"** والأولى أحسنهما عندنا، أراد: (واجب عليَّ ألا أقول)، والأخرى (أنا حقيق على ألا أقول على الله) يريد: بألا أقول على الله، كما قال: "بكل صراط توعدون" في معنى على كل صراط

(١) التحرير والتنوير: ٤/١٧٢، ١٧٣.

(٢) سورة الأعراف: الآيتان ١٠٤، ١٠٥.

توعدون"(١). وهذا الذي ذهب إليه الأخفش من تبادل الباء وعلى موقعيهما جارٍ على مذهب الكوفيين، مِن القول بنيابة حروف الجر بعضها عن بعض، ومن لم يعجبه هذا المذهب فرَّ منه إلى التضمين كما قال السيوطي: "ضُمِّن (حقيق) معنى حريص، ليفيد أنَّه محقوقٌ بقول الحق وحريصٌ عليه"(٢).

وأحسن ما قيل في تفسير دخول حرف الاستعلاء بما يبقيه على أصله، ويكشف سر النظم في إيثاره بهذا الموضع دون الباء، وجه حكَاه الزَّمخشري بعد استقصاء آراء العلماء واستحسنه، ذاهبًا إلى أنَّه الأدخل في نكت القرآن، وهو كما قال ولا مزيد عليه: "وفي المشهورة إشكال لا يخلو من وجوه: **الأول:** أن تكون ممَّا يقلب من الكلام لأمن اللبس، كقوله:

وتشقى الرماح بالضياطرة الحمر (٣).

ومعناه: وتشقى الضياطرة بالرِّماح، وحقيق على أنْ لا أقول، وهي قراءة نافع، **والثاني:** أنَّ ما لزمك فقد لزمته، فلما كان قول الحق حقيقًا عليه، كان هو حقيقًا على قول الحق، أي: لازمًا له، **والثالث:** أنْ يُضمَّن حقيق معنى حريص، كما ضمِّن هيجني معنى ذكَّرني، **والرابع:** وهو الأوجه والأدخل في نكت القرآن أن يغرق موسى في وصف نفسه بالصدق في ذلك المقام، لا سيما وقد روى أنَّ عدو الله فرعون قال له لما قال: إني رسول من ربِّ العالمين . كذبت، فيقول: أنا حقيق

(١) معاني القرآن للأخفش: ٣٠٧/٢.

(٢) معترك الأقران: ٢٦٣/١.

(٣) عجز بيت لخداش بن زهير، وهو من الطويل، ينظر: أمالي المرتضي: ٤٦٦/١، ولسان العرب: ٤٨٩/٤ (ضطر)، وبلا نسبة في سر صناعة الإعراب: ٣٢٣/١. وصدره: وتركب خيل لا هوادة بينها. والضياطرة: واحد ضيطار، وهو الضخم الذي لا يغني شيئا.

على قول الحق، أي: واجب عليّ قولُ الحق أن أكون أنا قائله، والقائم به ولا يرضى إلا بمثلي ناطقًا به"(١).

النموذج العشرون:

قال الله تعالى: " **وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا** "(٢).

قال ابن عاشور: "ومعنى قوله: "**وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ**" واقع موقع الاحتراس، أي: لا تؤتوهم الأموال إيتاء تصرّف مطلق... وعدل عن تعدية (ارزقوهم واكسوهم) بـ (من) إلى تعديتها بـ (في) الدَّالة على الظرفية المجازية، على طريقة الاستعمال في أمثاله، حين لا يُقصدُ التبعيض الموهم للإنقاص من ذات الشيء، بل يرادُ أنَّ في جملة الشيء ما يحصل به الفعل تارةً من عينه، وتارةً من ثمنه، وتارةً من نتاجه، وأنَّ ذلك يحصل مكررًا مستمرًا...ثم يقول: وهذا معنى بديع في الاستعمال لم يسبق إليه المفسرون هنا، فأهمل معظمهم التنبيه على وجه العدول إلى (في)، واهتدى إليه صاحب الكشَّاف بعض الاهتداء، فقال: أي اجعلوها مكانًا لرزقهم بأنْ تتجروا فيها وتربحوا حتَّى تكون نفقتُهم من الربح لا من صلب المال. فقوله: (لا من صلب المال) مستدرك، ولو كان كما قال لاقتضى نهيًا عن الإنفاق من صلب المال، وإنَّما قال: "**وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا**" ليسلم إعطاؤهم النفقة والكسوة من الأذى..."(٣).

---

(١) الكشاف: ١٠٠/٢، ١٠١.

(٢) سورة النساء: الآية ٥.

(٣) التحرير والتنوير: ٢٣٦/٤.

النموذج الحادي والعشرون:

قال تعالى: " وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْ "(١).

قال ابن عاشور: "و(حتَّى) ابتدائية، وهي مفيدة للغاية، لأنَّ إفادتها الغاية بالوضع، وكونها ابتدائية أو جارة استعمالات بحسب مدخولها...، وجمهور النُّحاة على أنَّ (حتَّى) الدَّاخلة على (إذا) ابتدائية لا جارة ... وجاءت الآية على هذا التركيب لتدلَّ على أنَّ انتهاء الحجر إلى البلوغ بالأصالة، ولكن بشرط أن يعرف من المحجور الرُّشدُ، وكل ذلك قطع لمعاذير الأوصياء من أن يمسكوا أموال محاجيرهم عندهم مدة لزيادة التمتع بها"(٢).

النموذج الثاني والعشرون:

قال الله تعالى: "وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ "(٣).

ذكر الزَّركشي: "أنَّ (على) هنا للمصاحبة، وجرى على ذلك كثير من المفسرين غير أنَّهم لم يذكروا سبب العدول إلى حرف الاستعلاء إلا أنَّ ابن عاشور يذكر أنَّ (على حبه) مجاز في التمكن من حبِّ المال، مثل: (أولئك على هدى) وهي في مثل هذا المقام للتنبيه على أبعد الأحوال مِن مظنة الوصف، فلذلك تفيد مفاد كلمة (مع)، وتدلُّ على معنى الاحتراس كما هي في قوله تعالى: " وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا "(٤). وليس هذا معنى مستقلا من معاني

(١) سورة النساء: من الآية ٦.

(٢) التحرير والتنوير: ٢/٢٤٠.

(٣) سورة البقرة: من الآية ١٧٧.

(٤) سورة الإنسان: من الآية ٨.

(على)، بل هو استعلاء مجازي، أريد به تحقق ثبوت مدلول مدخولها لمعمول متعلقها؛ لأنَّه لبعد وقوعه يحتاج إلى التحقيق، والضمير للمال لا محالةَ، والمراد أنَّه يعطي المال مع حبه للمال وعدم زهادته فيه فيدل على أنَّه إنَّما يعطيه مرضاة لله -تعالى-، ولذلك كان فعله هذا برًّا..."(١).

أقول: قد دلَّت (على) على استعلاء حب الله في نفوس هؤلاء المتقين على حب المال، نحو قوله تعالى: "وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ" فتغلب حب الله على شهواتهم ورغباتهم، فقد قال ابن عباس: "البرُّ بعد الإيمان إعطاءُ المال على حبِّه، على قلَّته وشهوته"(٢)، فهذا مدحٌ لهم بكمال الإيثار في بذل ما معهم من مالٍ أو طعامٍ على قلَّته وشدة حاجتهم إليه، راجين رضا الله ؛ لأنَّ ما عنده سبحانه لا ينفد وهو خير ممَّا يجمعون ويبقون لأنفسهم.

النموذج الثالث والعشرون:

ومن روائع النَّظم البديع قوله تعالى: "**يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ**"(٣).

قال أبو حيَّان: "و(على) تتعلق بـ (تتكبروا)، وفيها إشعار بالعلية، كما تقول: أشكرك على ما أسديت إليّ، قال الزَّمخشري: وإنَّما عدِّى فعل التكبير بحرف الاستعلاء، لكونه مضمنًا معنى الحمد وقوله كأنَّه قيل: ولتكبروا الله حامدين على ما هداكم هو تفسير معنى، لا تفسير إعراب، إذ لو كان تفسيرَ إعرابٍ لم تكن

(١) التحرير والتنوير: ٢/١٣٠، البرهان: للزركشي: ٤/٢٨٤.
(٢) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، مصطفى البابي الحلبي، ط:٢، ١٣٧٠هـ - ١٩٥١م: ص ١٩.
(٣) سورة البقرة: من الآية ١٨٥.

(على) متعلقة بـ (تكبروا) المضمنة معنى الحمد، إنَّما كانت تكون متعلقة بحامدين التي قدرها"(١).

ويقول الدُّكتور محمد أمين الخضري :"على أنَّ التضمين الذي قال به الزَّمخشري وتفسيره له، سواء كان تفسير إعراب أو تفسير معنى ليس إلا بيانًا لصحة تعدِّي فعل التكبير بحرف الاستعلاء، لكن نكتة الخروج عن مقتضى الظاهر في التعدية باللام تظل معه غائمة...، ويرى الدكتور أنَّ الله يريد من عباده الارتفاع إلى مستوى من شكر الله على نعمه يليق بجلال هذه النعم، والحديث هنا عن نعمة التخفيف، ورفع المشقة والحرج بتيسير العبادة، حيث رخَّص للمريض والمسافر بالإفطار في رمضان رحمة بهما، دون أن يحرمهما فضل الصيام متى زال المانع منه، وذلك فضل من الله عظيم يستوجب من عباده أن يقابلوه بالشكر، ويعظموا الله تعظيما يجلل نعمته ويغطيها، وهذا هو ما يشيعه حرف الاستعلاء على مدخوله، ومن فضل الله أن جعل الحمد على النعمة أفضل منها، فقال عليه السلام فيما رواه ابن ماجه: " ما أنعم الله على عبدٍ نعمة، فقال: الحمد لله، إلا كان الذي أعطاه أفضل ممَّا أخذ"(٢). فالغرض من العدول إلى حرف الاستعلاء: هو حثُّ المؤمنين على المبالغة في تعظيم الله – تعالى- والإكثار من شكره ومداومة الثناء عليه بما يجلل توفيقه لهدايتهم"(٣).

وهذا ما ذهب إليه الألوسي في قوله تعالى: " **أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞ**"(٤)، فقال: "وأتى بـ (على) إشارة إلى أنهم منغمسون في ذلك، وقد غشيهم وتجللهم، فهو أبلغ من اللام"(٥).

(١) البحر المحيط: ٢/٤٤.
(٢) سنن ابن ماجه (كتاب الأدب)، دار إحياء التراث العربي، بيروت: ٢/٣٨٠٢.
(٣) من أسرار حروف الجر: ص ٨٩، ٩٩.
(٤) البقرة: من الآية ١٥٧.
(٥) روح المعاني: ٢/٢٣، ٢٤.

وهذا ما ذهب إليه ابن القيم أيضًا، فقال: "والغرض بذلك كثرة الصلاة والرحمة؛ لأنَّ ما علاك وجللك فقد أحاط بك"(١).

ويعلل الدكتور محمد أمين الخضري على لما ذهب إليه الألوسي وابن القيم قائلا: "وهذه لطيفة من اللطائف التي وقع عليها الألوسي وابن القيم، ممَّا يدلل على أن أسرار الحروف في الذِّكر الحكيم لا تكاد تُحصى، وأضاف الدكتور إلى قوليهما أنَّ (على) توحي بجعل الرَّحمة سياجًا حول المؤمن، وحصنًا يحميه من عذاب الله، فهو منها في غطاء يحول دُونَ وصول غضب الله إليه، ويحجب عنه سخطه وعقابه"(٢).

النموذج الرابع والعشرون:

قال تعالى: "عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِ "(٣).

فلننظر لحال هؤلاء المنافقين إذ يجسد التعبير القرآني حالهم تجسيدًا ينطبق بمدى ما هم فيه من غيظ وحقد على المؤمنين، حيث لا يستطيعون النيل منهم، فهم في حسرةٍ لم يجدوا معها غير أناملهم يعضونها، ويفرغون فيها ما في نفوسهم من حقد، وفي هذا تصوير لهم بفقد الوعي والإدراك حتَّى أنَّهم عضوا أناملهم غيظًا وكمدًا، وهذا التصوير والتجسيد كان من ظلال (على) إذا ألقت بهذه الصورة المشاهدة لتتجسد مشهدا أمام العين، ولو قال سبحانه: عضوا لكم الأنامل مِن الغيظ، ما دلَّت على حال المنافقين هذا.

يقول ابن عاشور: "والعضُّ: شدُّ الشيء بالأسنان، وعضُّ الأنامل كناية عن شدة الغيظ والتحسر، وإن لم يكن عض الأنامل محسوسًا، ولكن كنِّي به عن

(١) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن: لابن القيم، دار المعارف، الرياض: ص ٣٩.

(٢) من أسرار حروف الجر: ص ٩٠.

(٣) سورة آل عمران: من الآية ١١٩.

لازمه في المتعارف، فإنَّ الإنسان إذا اضطرب باطنه من الانفعال صدرت عنه أفعال تناسب ذلك الانفعال، فقد تكون مُعينة على دفع انفعاله كقتل عدوه، وفي ضده تقبيل من يحبه..."(١).

وأقول – والله أعلم- إنَّ هذا الحقد والغيظ قد استحوذ عليهم حتَّى علاهم معنويًا، فهو بداخلهم، وسيظل مستحوذًا عليهم حتَّى الموت، وظاهرًا في تلك الصورة التي رسمها التعبير القرآني بـ (على) حين عضُّوا أنامَلَهم، فالله سبحانه يكشف لنا ما بداخلهم، فهو عالم الغيب والشهادة يخبرنا عن مستودعات ضمائرهم، وهو الرحمن الرحيم بالمؤمنين، وسيظلُّ ألمُ الغيظ مستمرًا فيهم، لذلك قال الله: "**إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ** "(٢) ثم زاد الله كشفا لما في صدروهم بقوله سبحانه: "**إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٌ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٌ يَفۡرَحُواْ بِهَا** "(٣).

النموذج الخامس والعشرون:

قال الله تعالى: "**وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا** "(٤).

فقد دلَّت (على) بظلالها على إظهار التَّمكن والقهر والدلالة على الغلبة والعلو، فقد كشفت (على) عن دخائل الكافرين، ورغبتهم في التسلط على المؤمنين وإذلالهم، وبسط سيطرتهم عليهم، ولكن الله بمعيته للمؤمنين لا يمكنهم من رقابهم، فهم أعزاء بالله، لذا لم يصح التعبير بـ (إلى) في هذا الموضع، يقول العز بن عبد السلام: "**مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ** "(٥) ولم يقل: ما إليهم، وهو الحقيقة؛ إذ يقال: طريق إلى

---

(١) التحرير والتنوير: ٦٧/٤.

(٢) سورة آل عمران: من الآية ١١٩.

٣() سورة آل عمران: من الآية ١٢٠.

٤() سورة النساء: من الآية ١٤١.

(٥) سورة الشورى: من الآية ٤١.

مكان، وسبيل إليه، ويوضح الفرق قائلا: "إنَّ (على) يستعمل في الضرر، كقوله: "**وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَا**" وكقولنا: (عليه دين)، والمقصود هاهنا إنَّما هو نفي الضرر عنهم إذا طلبوا حقوقهم، فكان الاهتمام بالمقصود أولى"[1].

(١) الفوائد في مشكل القرآن: ص ١٥٧.

الخاتمـة

الحَمدُ لله له الفضلُ والمنةُ، وبنعمتِه تتمُّ الصالحاتُ، وصلَّى الله وسلَّم على المبعوثِ رحمَةً وهدايةً للعالمين، وعلى آله وصحبةِ الأطهارِ الغُرِّ الميامين وسلِّم تسليمًا كثيرًا. وبعد: يجدر بنا أنْ نرصدَ أهمَّ النَّتائج التي توصل إليها البحث، وتتمثل في:

- أنَّ للأدوات وظائفَ متعددة: معنويَّة، وحكميَّة، ولفظيَّة، لا يستقيمُ عودُ الجملة إلا بهذه الأدواتِ.
- أنَّ العرب كانوا على قدرٍ كبيرٍ من معرفة الظَّواهر اللغوية قبل نشوء التفسير.
- أنَّ الأدوات لها علاقة قويَّة بالتَّفسير، من حيث قيمتها التَّعبيرية في هذا المجال، كشفت عن أسرار دلاليَّة وأحكام شرعيَّة تختلف باختلاف وجود الأداة من عدمه.
- أنَّ الغَاية عند النُّحاة تعني المسافة، ولا تقتصر على النهاية فقط، لذلك فأدوات الغاية تشملُ أدواتِ الابتداء وأدوات الانتهاء وما بينهما، وأدوات الابتداء والانتهاء معًا.
- أنَّ النُّحاة يفضلون استخدام مصطلح (الغَاية) على سائر المعاني التي في معناها كالمسافة والمدى والأمد والأجل؛ لأنَّها تدلُّ على النهاية والمدى معًا، وأنَّها تأتي للزمان والمكان، كما تدلُّ على البُعد.
- أنَّ من قواعد حفظ اللغة العربية لأساليبها أنَّها خصَّت بعض الأدوات بدلالة معينة، فقد خصَّت (مُذْ) و(مُنْذُ) بابتداء غاية الزَّمان، وخصَّ البصريون (مِن) بابتداء غاية المكان، وخصّت (لدن) ببداية الغاية الدَّالة على الإلصاق، وخصّت (إلى) بانتهاء الغاية فيما ليس بآخر ولا متصل به، وخصت (حتى) العاطفة بانتهاء الغاية في زيادة أو نقص.

- أنَّ هناك حروفًا تبادلت النيابة أثبتَها الذِّكرُ الحكيمُ والواقعُ اللغوي، وما كان ذلك إلا لنكتةٍ في المعنى أرادَها سبحانه، فلا مانعَ من هذا التناوب.
- أنَّ نيابة حرف عن حرف آخر فنٌّ يخضع لمدى فهم كل مفسر لمعنى هذا الحرف، ومتطلبات سياقه، وأحيانًا لانتماء هذا أو ذاك لمذهب نحوي، أو رفضه لمذهب آخر، بدليل اختلافهم في تحديد الحرف المنوب عنه.
- أنَّ الآراء المتعارضة في تحديد الحرف أو الأداة إنَّما جاءت من أنَّ النَّحويّ أو المفسِّر كان ينظر إلى جانب دون آخر في الحرف، في حين كان ينبغي أن ينظر نظرة أشمل لجوانبِ الحرف تشملُ جوانبه: الدلاليَّة، واللغويَّة، والوظيفة النحويَّة، والبنيَة الصرفيَّة، مع الإقرار بجهودهم، وعدم التقليل منها.
- أظهرت الدراسة أنَّ المفسِّرين كان لهم الدورُ الأكبرُ في بيان أهمية الأدوات لفهم كتاب الله، فضلًا عن الأصوليين، واللغويين، والنُّحاة.
- أنَّ (مِنْ) أمُّ أدوات الغاية، وأقواها وأكثرها شيوعًا في الذكر الحكيم والكلام الفصيح، فضلًا عن تعدد معانيها.

وبعد، فهذا ما استطعت جمعه ودراسته بعون الله وتيسيره، من كتب النَّحو – قديمها وحديثها- معتمدة على كتب التفاسير واللغة والأصول، وأكَّدت لي هذه الدراسة أهميَّة فهم هذه الأدوات لفهم مراد الله – تعالى- والتأكيد على أنَّ القرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فسبحان من هذا نظمه.

والحمد لله وكفى وصلاةً وسلامًا على من اصطفى.

المصادر والمراجع

- الإتقان في علوم القرآن: السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن)،(ت٩١١هـ)، وبأسفل الصحائف: إعجاز القرآن للقاضي أبي بكر الباقلاني، توزيع دار الباز، مكة المكرمة.
- الأدوات النحوية في كتب التفسير: د. محمود أحمد الصغير، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ.
- الاقتضاب في شرح أدب الكتّاب: البطليوسي (أبو محمد عبد الله بن محمد ابن السيد البطليوسي)، (ت:٥٢١هـ)، تحقيق الأستاذ مصطفى السقا، د. حامد عبد المجيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، ١٩٨٠م، ودار الشؤون الثقافية بغداد، ط٢، ١٩٩٠م.
- الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال: ابن المنير الإسكندراني، مصطفى البابي الحلبي، ط: ١، (١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م).
- البحر المحيط في أصول الفقه: الزركشي(بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله الشافعي)، (ت: ٧٩٤هـ)، قام بتحريره: الشيخ: عبد الله العاني، وراجعه: د. عمر سليمان الأشقر، ط٢ ،١٤١٣هـ. ١٩٩٢م، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، دار الصفوة للطباعة والنشر والتوزيع.
- البرهان في علوم القرآن: الزركشي(الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزَّركشي)، (ت: ٧٩٤هـ)، تحقيق: يوسف عبد الرحمن المرعشلي، جمال حمدي الذهبي، إبراهيم عبد الله الكردي، ط١، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، دار المعرفة، بيروت.
- التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، نشر دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس.
- تفسير البحر المحيط: أبو حيان الأندلسي(محمد بن يوسف الغرناطي)، (ت: ٧٤٥هـ)، ط٢، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.

- تفسير البيضاوي(أنوار التنزيل وأسرار التأويل): البيضاوي (ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي)، (ت:٦٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، ط١، ١٤١٨هـ، دار إحياء التراث العربي.
- تفسير القرآن الكريم: محمد رشيد رضا، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.
- التفسير الكبير (مفاتيح الغيب): الرازي (فخر الدين محمد بن عمر الرازي)، نشر دار الفكر، بيروت، ط:١، ١٤٢٥هـ.
- التفسير الكبير =مفاتيح الغيب: الرازي(فخر الدين)، (ت: ٦٠٤هـ)، ط١، ١٤١١هـ . ١٩٩٠م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان
- تفسير اللباب: ابن عادل: اللباب في علوم الكتاب: لأبي حفص عمر بن عادل الحنبلي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط: ١، ١٤١٩هـ.
- تنوير المقباس من تفسير ابن عباس: مصطفى البابي الحلبي، ط:٢ (١٣٧٠هـ - ١٩٥١م).
- الجنى الدَّاني في حروف المعاني: المرادي(الحسن بن القاسم)، (ت: ٧٤٩هـ)، تحقيق: د. فخر الدين قباوه، د. محمد نديم فاضل، ط٢، ١٤٠٣هـ . ١٩٨٣م
- الدر النضيد لمجموعة ابن الحفيد:(سيف الدين بن يحيى بن سعد الدين التفتازاني)، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
- درة التنزيل وغرة التاويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز: الإسكافي(أبو عبد الله محمد بن عبد الله)، (ت: ٤٢٠هـ)، برواية ابن أبي الفرج الأردستاني، ط٤، ١٤٠١هـ . ١٩٨١م، دار الآفاق الجديدة، بيروت.
- سنن ابن ماجه (كتاب الأدب)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

- غرائب القرآن ورغائب الفرقان: النيسابوري(نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي)، (ت: ٨٥٠هـ)، تحقيق الشيخ: زكريا عميرات، ط١، ١٤١٦هـ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان.
- غرائب القرآن: النيسابوري، تحقيق: إبراهيم عطوة عوض، مكتبة مصطفى الحلبي، ط:١ (١٣٨٥هـ – ١٩٦٥م).
- الفوائد المشوق إلى علوم القرآن: لابن القيم، دار المعارف، الرياض.
- كتاب الأم: الشافعي (أبو عبد الله محمد بن لإدريس بن العباس بن عثمان بن شافع القرشي المكي)، (ت: ٢٠٤هـ)، دون طبعة،١٤١٠هـ- ١٩٩٠م، دار المعرف، بيروت، لبنان.
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: الزمخشري (أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشريّ الخوارزميّ)، (ت: ٥٣٨هـ)، ط١، ١٣٩٧هـ- ١٩٧٧م، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع
- كشف الأسرار عن أصول البزدوي: البخاري(عبد العزيز بن أحمد بن محمد علاء الدين)، (ت: ٧٣٠هـ)، ١٩٤٧م، طبع دار الكتاب العربي، بيروت.
- لسان العرب: ابن منظور(أبو الفضل جمال محمد بن مكرم)، (ت: ٧١١ هـ)، دار صادر، بيروت.
- معاني القرآن للأخفش الأوسط: (أبو الحسن سعيد بن مسعدة المجاشعيّ البلخيّ البصري)، (ت: ٢١٥هـ)، تحقيق الدكتور: عبد الأمير محمد أمين، ط٢، ١٩٨٥م، عالم الكتب، بيروت.
- معترك الأقران في إعجاز القرآن: السيوطي(جلال الدين عبد الرحمن أبو بكر)، (ت: ٩١١هـ)، تحقيق: أحمد شمس الدين، ط١، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: ابن هشام(أبو محمد عبد الله جمال الدين ابن يوسف الأنصاري المصري)، (ت ٧٦١هـ)، تحقيق: د. مازن المبارك، محمد علي حمد الله، راجعه: سعيد الأفغاني، ط٥، ١٩٧٩م، دار الفكر.
- المغني لابن قدامة: (أبي محمد عبد الله بن أحمد بن محمد)، (ت: ٦٢٠هـ)، على مختصر أبي القاسم عمر بن الحسين الخرقي، ويليه الشرح الكبير على متن المقنع تأليف الشيخ: شمس الدين أبي الفرج بن قدامة المقدسي، (٦٨٢هـ) ج١، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع.
- المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني(أبو القاسم الحسن بن محمد)، (ت: ٥٠٢هـ)، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت.
- ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه من آي التنزيل: الغرناطي(أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي العاصمي)، (ت: ٧٠٨هـ)، تحقيق: سعيد الفلاح، ط١، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
- من أسرار حروف الجر: محمد أمين الخضري، الأستاذ بكلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، مكتبة وهبة، ط :١، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.
- منتخب قرة العيون النواظر في الوجوه والنظائر في القرآن الكريم: ابن الجوزي، تحقيق: محمد السيد طنطاوي، منشأة دار المعارف بالأسكندرية، ١٩٧٩م.
- نتائج الفكر في النحو: السهيلي(أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله)، (ت: ٥٨١هـ)، تحقيق: د. محمد إبراهيم البنا، ط٢، دار الرياض للنشر والتوزيع.

* * *